

الواقعية الساذجة

في عام (1982) عارض (غاري) جرينوالد انتشار موسيقى (الروك) بين الشباب. وكان سبب معارضة يكمن فيما دَعَاهُ بِالرَّسَائِلِ المعكوسة؛ إذ كَانَ يَرَى أَنَّ تِلْكَ الْأَغَانِي تَحْتَوِي عَلَى رَسَائِلَ خَفِيَّةٍ يُمكنُ سَمَاعُهَا فَقَطْ حِينَ يَتِمُّ الاسْتِمَاعُ إِلَى الْأُغْنِيَةِ بِشَكْلِ مَعْكُوسٍ، وَأَنَّ تِلْكَ الرِّسَائِلَ تَنفُذُ إِلَى عُقُولِ الشَّبَابِ غَيْرِ الْمُدْرِكِ لَوْجُودِهَا، دَافِعَةً إِيَّاهُ إِلَى سُلُوكِيَّاتٍ خَاطِئَةٍ. وَلِإِقْنَاعِ النَّاسِ بِرَأْيِهِ بَدَأَ (غاري) يُنْظِمُ نَدَوَاتٍ عَنِ خَطَرِ تِلْكَ الرِّسَائِلِ المعكوسة، فَكَانَ يَدْعُو الْأَهَالِي، وَيَعْرِضُ فِكْرَتَهُ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي: يَذْكُرُ مِثَالًا لِأُغْنِيَةِ (روك) مَشْهُورَةٍ، يُخْبِرُ الْحُضُورَ عَنْ مُحْتَوَى رِسَالَتِهَا الْخَفِيَّةِ الْمَعْكُوسَةِ، ثُمَّ يَقُومُ بِتَشْغِيلِ تِلْكَ الْأُغْنِيَةِ بِشَكْلِ مَعْكُوسٍ لِيَسْتَمِعَ إِلَيْهَا الْحُضُورُ، وَيَتَأَكَّدُوا مِنْ صِدْقِ ادِّعَائِهِ، فَيَسْمَعُونَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَخْبَرَهُمْ بِوُجُودِهَا حَقًّا، فَيَتَيَقَّنُ الْحُضُورُ مِنْ خَطَرِ تِلْكَ الرِّسَائِلِ الْخَفِيَّةِ عَلَى عُقُولِ أَبْنَائِهِمْ وَسُلُوكِيَّاتِهِمْ. وَغَالِبًا مَا كَانَتْ تِلْكَ النَّدَوَاتُ تَنْتَهِي بِتَحْطِيمِ الْأَهَالِي لِأَسْطَوَانَاتِ أَغَانِي (الروك) الَّتِي يَمْتَلِكُونَهَا.

وَبَعْدَ انْتِشَارِ هَذِهِ النَّدَوَاتِ، وَحَدِيثِ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ عَنْهَا، قَرَّرَ أَسْتَاذُ عِلْمِ النَّفْسِ (جون فوكي) إِجْرَاءَ تَجْرِبَةٍ لِدِرَاسَةِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ. فَقَامَ بِتَسْجِيلِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْجَمَلِ وَالْعِبَارَاتِ بِشَكْلِ مَعْكُوسٍ، بِحَيْثُ تَكُونُ مُخْتَلِفَةً فِي مُحْتَوَاهَا وَلُغَتِهَا وَجِنْسِ قَائِلِهَا، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ النَّاسِ لِيَسْتَمِعُوا إِلَيْهَا، وَيُجِيبُوا عَنْ بَعْضِ الْأَسْئَلَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِمُحْتَوَاهَا. وَكَانَتْ النَّتِيجَةُ أَنَّ عَيْنَةَ الْبَحْثِ اسْتَطَاعَتْ تَحْدِيدَ لُغَةِ الْعِبَارَةِ، وَجِنْسِ مُتَحَدِّثِهَا، لَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ تَحْدِيدَ مَا إِذَا كَانَتْ الْجُمْلَةُ مُرْتَبَةً تَرْتِيبًا صَحِيحًا أَمْ غَيْرَ صَحِيحٍ، كَمَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَصْنِيفَ مُحْتَوَى تِلْكَ الْعِبَارَاتِ. بِمَعْنَى آخَرَ، لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَى مَا سَمِعُوهُ، كَانَ مُجَرَّدَ صَوْتٍ مِنْ دُونِ مَعْنَى وَاضِحٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ الْحُضُورُ فِي نَدَوَاتِ (غَارِي جرينوالد) سَمَاعَ تِلْكَ الرِّسَائِلِ الْخَفِيَّةِ الْمَعْكُوسَةِ فِي أَغَانِي (الروك)؟

يُجِيبُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ بِمَا يُسَمَّى "أثر التَّوَقُّعِ"، الَّذِي يُعَرَّفُ بِأَنَّهُ تَأَثُّرُ إِدْرَاكِ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ لِلْمُعْطَيَاتِ الْمُحِيطَةِ بِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُهُ عَنْهَا مُسَبِّقًا، بِشَرْطِ أَنْ تَمْتَلِكَ تِلْكَ الْمُعْطَيَاتِ قَدْرًا مِنَ الْغُمُوضِ وَالتَّشْوِيشِ؛ إِذْ يَلْجَأُ الْعَقْلُ، عَادَةً، إِلَى خَلْفِيَّتِهِ الْمَعْرِفِيَّةِ السَّابِقَةِ لِمَلْءِ الْفَرَاغِ الَّذِي يَتْرُكُهُ عَدَمُ الْفَهْمِ، فَيُدْرِكُ تِلْكَ الْمُعْطَيَاتِ طَبَقًا لِتَوَقُّعَاتِهِ هُوَ، وَلَيْسَ طَبَقًا لِحَقِيقَتِهَا. فَحِينَ حَاوَلَ الْحُضُورُ فِي نَدَوَاتِ (غَارِي) تَفْسِيرَ الْعِبَارَاتِ الْمَعْكُوسَةِ الَّتِي سَمِعُوهَا، لَجَأَتْ عُقُولُهُمْ لِمَلْءِ الْفَرَاغِ الْمَعْرِفِيِّ النَّاجِمِ عَنْ عَدَمِ الْفَهْمِ بِمَا تَتَوَقَّعُهُ مُسَبِّقًا عَنْهَا، وَهُوَ مَا تَلَاهُ (غَارِي) عَلَيْهِمْ قَبْلَ تَشْغِيلِ تِلْكَ الْأَغَانِي.

إِنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ جَبَّارٌ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى الْفَهْمِ، وَجُزْءٌ مِنْ قُدْرَتِهِ الْعَجِيبَةِ هَذِهِ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى التَّعَرُّفِ إِلَى الْأَنْمَاطِ فَوْزَ رُؤْيَيْهَا طَبَقًا لِمَخْزُونِهِ الْمَعْرِفِيِّ: أَلَمْ تَرَ مِنْ قَبْلُ شَكْلَ قِطْعَةٍ فِي السَّحَابِ؟ يُفَسِّرُ الْعَقْلُ التَّشْوِيشَ فِي شَكْلِ السَّحَابَةِ بِنَمَطٍ مَعْرُوفٍ لَدَيْهِ كِقِطْعَةٍ أَوْ خَرُوفٍ مَثَلًا.

وَلَكِنَّ تِلْكَ الْعَمَلِيَّاتِ الْأَوْتُومَاتِيكِيَّةَ الَّتِي تَقُومُ بِهَا عُقُولُنَا يَنْتُجُ عَنْهَا بَعْضُ الْأَخْطَاءِ أحيانًا، لِأَنَّ الْعَقْلَ يَبْدَأُ فِي اسْتِحْضَارِ تَوَقُّعَاتِهِ الْمُسَبِّقَةِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ غَيْرَ دَقِيقَةٍ، فَيُفَسِّرُ عَلَى أَاسَاسِهَا مَا يَرَاهُ وَيَسْمَعُهُ، فَتَوَدِّي التَّوَقُّعَاتِ وَالتَّجَارِبِ الْمُسَبِّقَةِ إِلَى إِدْرَاكِ غَيْرِ صَحِيحٍ، يَنْبِئِي عَلَيْهِ اسْتِنْتِجَاتٌ غَيْرُ صَحِيحَةٍ؛ وَهَذَا مَا يُفَسِّرُ سَبَبَ تَعْصِبِ النَّاسِ لِأَرَائِهِمْ، لِأَنَّ كُلَّ شَخْصٍ يَظُنُّ أَنَّ رَأْيَهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ بِعَيْنِهَا.

وَهَذَا مَا يُسَمَّى فِي عِلْمِ النَّفْسِ بِالْخَطَأِ الْأَسَاسِيِّ فِي الْإِدْرَاكِ، لِأَنَّنَا كَثِيرًا مَا نَفَسِّرُ الْأُمُورَ وَفُقَ قَنَاعَاتِنَا وَرُؤْيَيْنَا لِلْعَالَمِ، وَلَيْسَ اعْتِمَادًا عَلَى الْحَقَائِقِ وَالْأَدِلَّةِ وَحْدَهَا.

مَا مَصْدَرُ تِلْكَ التَّوَقُّعَاتِ الْمُسَبِّقَةِ؟ مَصْدَرُهَا خَلْفِيَّتُكَ الْمَعْرِفِيَّةُ الَّتِي تَكْتَسِبُهَا مِنَ التَّعْلِيمِ وَالْإِعْلَامِ وَالتَّرْبِيَةِ الْمَنْزِلِيَّةِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالثَّقَافَةِ وَالِدِّينِ، وَكُلُّ مَصْدَرٍ لِلْمَعْلُومَاتِ يَتَوَقَّرُ لَدَيْكَ طَوَالَ حَيَاتِكَ. وَفِي بَيْئَةٍ مِنَ التَّعْلِيمِ الرَّدِيِّ وَالْإِعْلَامِ الْمَوْجَّهِ وَالثَّقَافَةِ الضَّخْلَةِ، مَا مِقْدَارُ التَّلَفِ وَالْأَخْطَاءِ فِي خَلْفِيَّتِنَا الْمَعْرِفِيَّةِ وَتَوَقُّعَاتِنَا الْمُسَبِّقَةِ؟!

إِنَّنَا حِينَ نَظُنُّ أَنَّ مَا نَرَاهُ وَنُذَرِّكُهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ بِعَيْنِهَا، وَلَيْسَ نُسَخَّتْنَا نَحْنُ عَنِ الْحَقِيقَةِ، وَحِينَ نَصِفُ مَنْ يَخْتَلِفُونَ عَنَّا فِي الْفَهْمِ وَالتَّفْسِيرِ بِالْجَهْلِ أَوْ الْغَبَاءِ، نَقْعُ فِيمَا يُسَمَّى بِأَحْثُو عِلْمِ النَّفْسِ بِالْوَاقِعِيَّةِ السَّادِجَةِ، الَّتِي يُمَكِّنُ تَعْرِيفَهَا بِأَنَّهَا: الْإِعْتِقَادُ بِأَنَّ مَا نَظْنُهُ نَحْنُ عَنِ الْوَاقِعِ هُوَ الْوَاقِعُ بِعَيْنِهِ.